تمهيـــــد

ليس بوسع معظم القراء أن يقضوا وقتًا طويلاً للتمكن من الإلمام بالفوارق الدقيقة فى دين آخر غير دينهم، فهذا الأمر لا يهم إلا العلماء. وغالبية الناس يسعون إلى تحصيل المعلومات عن الإسلام التى تشرح وتنير عالم الإسلام فى مواجهة القضايا المعاصرة. ومعظم القراء يريدون إجابات مباشرة وبسيطة لأسئلتهم الأساسية الصادرة من القلب.

لماذا تقرأ هذا الكتاب؟

ربما تكون أحد النواب فى الكونجرس الأمريكى ويهمك أمر الأمن القومى الأمريكى، وتريد أن تعرف أسباب انتشار الغضب الشديد المعادى لأمريكا فى العالم الإسلامى؛ ولماذا تصاغ الحركات السياسية الإسلامية بألفاظ إسلامية، وما الذى يفرخ تلك الحركات؛ وتريد أيضًا أن تعرف ما الذى تستطيع أن تفعله الحكومة الأمريكية على نحو مختلف لتوفير قدر أكبر من الأمن لمواطنيها على الصعيدين الداخلى والخارجى.

ربما تكون مسيحيًا أمريكيًا ورعًا ويؤذيك ما أطلقه الإيرانيون على بلدك الحبيبة بأنها «الشيطان الأكبر» وتتساءل عما إذا كان الإسلام فى جوهره معاديًا للمسيحية!!

وربما تكون متدينًا محافظًا مثل جورج دبليو بوش تؤمن حقًا أن الإسلام دين يدعو إلى السلام، لكن تنتابك الحيرة تجاه رفض المسلمين الكامل لضم إيران لما يسمى «محور الشر».

وربما تكون يهوديّا أمريكيّا لديك ولاء عميق لإسرائيل، ويزعجك تصاعد العداء للسامية فى العالم الإسلامى، ويقلقك أن هناك ١,٢ مليار مسلم يريدون تدمير أرض أشواقك الدينية والتاريخية.

وربما تكون باحثًا عن الروحانيات تتعجب من كون الإسلام أسرع الديانات انتشارًا فى العالم.

وربما تكون أمريكيّا مناصرًا لحقوق المرأة يأسرك ما سجلته موثقًا «باربارا وولترز ـ Barbara Walters» عن النساء فى المملكة العربية السعودية، ويدهشك رجاحة عقلهن وقوة إرادتهن المستترة خلف ما يرتدينه من ثياب سوداء فضفاضة.

وربما تكون أمريكيّا مسلمًا ـ شابّا أو فتاة ـ يربكك ما ترى من صورة الإسلام كما تبثه وسائل الإعلام الأمريكية عن أسامة بن لادن، ومن صورة الإسلام الذى تمارسه جدتك الحبوبة التى ما تنفك تجلس على سجادة صلاتها وتدعو لك أن تتزوج مسلمة متدينة، أو تتزوجى مسلمًا متدينًا.

كل الأسئلة الواردة فى هذا الكتاب كانت من بين الأسئلة التى وُجهت إلىّ خلال محاضراتى بعد الحادى عشر من سبتمبر؛ وإننى لأشعر ببالغ الامتنان لمن أثاروا تلك الأسئلة، وخصوصًا أولئك الذين آثرونى بالأسئلة الصعبة.

لماذا أبحث عن رؤية جديدة؟

منذ الحادى عشر من سبتمبر، أصبح التصور السائد عن الإسلام ـ وهو الدين الذى أحبه والذى يشكل هويتى الجوهرية كإنسان ـ لدى قاعدة عريضة فى الولايات المتحدة، أنه تهديد للأمن القومى، بينما أثارت الولايات المتحدة ـ التى أعتز بقيمها ـ قدرًا هائلاً من العداء والألم المبرح فى كثير من بقاع العالم الإسلامى. ويتحمل المسلمون الأمريكيون اليوم آلام مشاهدة هذا الانقسام المتنامى، وقد تحدانى رفاقى الأمريكيون لعرض أفكار جديدة تمس الحاجة إليها عن كيفية رأب تلك الصدوع الآخذة فى الاتساع.

إن الانتصار الذى حققته العسكرية الأمريكية على نظام صدام حسين فى العراق يعنى أن أمريكا اليوم الآن مسئولة عن تشكيل عراق جديد، ذلك البلد الذي يرتبط فى

العقل الإسلامى بصورة وثيقة بجزء من تراث التاريخ الإسلامى العظيم؛ فقد كانت بغداد، عاصمة العراق، مقرّا للخلافة العباسية الإسلامية لمدة خمسة قرون ـ من ٧٥٠م إلى ١٢٥٨ م ـ وهى الفترة التى شهدت تطوراً هائلاً فى جميع العلوم الإسلامية من الفقه والفلسفة، وحتى العلوم الطبيعية والفنون الجميلة.

عندما عاد رسول الله محمد ﷺ من إحدى الغزوات، قال لأصحابه: «لقد عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» أى من المعركة التى يتم خوضها بالسيوف إلى المعركة التى ندخلها بالعقول والأفئدة حتى نحيا حياة ورعة طيبة؛ لقد ربحت أمريكا الجهاد الأصغر الذى أسقطت خلاله نظام صدام حسين. لكن التحدى الأعظم الذى لا يزال يواجهها هو كسب قلوب العراقيين وأفئدتهم والوصول من خلالهم إلى بقية العالم الإسلامى. لقد أضحى تحقيق السلام هو الجهاد الأكبر أمام أمريكا.

ومن جانبهم أضحى مسلمو أمريكا ـ أولئك الذين استطاعوا أن يوائموا بين هويتهم الأمريكية وهويتهم الإسلامية ويدمجوهما معًا ـ فى وضع فريد يتيح لهم المساعدة فى تحقيق السلام. فقد تعلموا كيف يحدثون الأمريكيين عن الإسلام وكيف يحدثون العالم الإسلامى عن أمريكا. وأن يحدثوا كلا الجانبين عن مواطن الاتفاق والاختلاف بين قيم الإسلام والقيم الأمريكية. هناك حاجة ملحة لتدخلهم إذا كنا نريد حقّا أن نرأب الصدع بين العالم الإسلامى والغرب.

ستظل القضية الأكثر تأججًا هى كيفية وقوع رعب الحادى عشر من سبتمبر باسم الإسلام ولدى الأمريكيين مخاوف مشروعة من أن تكون القيم الإسلامية بطبيعتها معادية على ما يبدو للقيم والديمقراطية الغربية.

فى محاولة لفهم أغوار القضايا الأساسية أمطرنى بعض أصدقائى الأمريكيين غير المسلمين بجملة من الأسئلة منها: هل الفقه الإسلامى هو الذى يستحق اللوم؟ هل المشكلة تنجم عن المفهوم الإسلامى للجهاد أو عن الاعتقاد بأن منفذى التفجيرات الانتحارية يجزون باثنتين وسبعين من الحور العين فى الجنة؟ أم أن المشكلة ترتبط بقمع النساء فى بعض المجتمعات الإسلامية، أو عن الاعتقاد السائد بين المسلمين بعدم الفصل بين الدين والدولة، أو تآكل الإسلام المعتدل على يد المتشددين الوهابيين؛ أو الافتقار إلى حركات الإصلاح الدينى مثل التى حدثت فى المسيحية؟

بعد جلسة دامت ساعتين من تلك الأسئلة والإجابة عليها وجدت نفسى وقد ألقى أمامى قفاز التحدى الأكبر لا محالة: حسنًا. كيف لنا أن نداوى العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامى؟ تلك هى القضية الحاسمة فى عصرنا؛ وباعتبارى مسلمًا أمريكيًا يحمل على عاتقه واجبات الإمام أجد نفسى مضطرًا لمحاولة الإجابة.

على مدى الأعوام الخمسة والثلاثين الماضية، ومن خلال محاضراتى فى المدارس والجامعات والكنائس والمعابد اليهودية، والمساجد أيضًا بطبيعة الحال، كنت أقوم فى يوم الجمعة وأحيانًا فى يوم الأحد بشرح العقيدة الإسلامية للمسلمين وغير المسلمين على حد سواء؛ فكلا الفريقين كانا فى حاجة إلى فهم ما أشكل عليهما حول الإسلام والفكر الإسلامى الذى تم تشويهه على نحو مجحف على يد غير المسلمين، بل وبعض المسلمين ممن ليس لديهم علم كاف بعقيدتهم. فمما يثير دهشة الكثيرين ـ بالرغم من أن الأمر ليس سرًا كما يرثى له العديد من أصدقائى من مختلف الديانات ـ أن الكثيرين جدًا من أتباع عقيدتنا الإبراهيمية يعانون من قدر كبير من سوء الفهم لدينهم أو لا يفهمونه بشكل كاف. وبينما يصدق هذا على الرغم من التردد على الكنائس ومعابد اليهود والمساجد؛ فإن البعض يرى أن السبب فى ذلك يرجع جزئيًا إلى ذلك. يشعر الكثيرون بعدم الرضا، والنفور والغضب، والرعب، بل والارتباك من تجاربهم فى دور العبادة. وهو ما يحدث فى المساجد أيضًا.

لكن الجهل بعقائدنا وعقائد الآخرين ليس هو المشكلة الوحيدة. فقد أصبح الأمريكيون شعبًا أميًا فى أمور الدين؛ فالأعراض الجانبية لتلك الحقبة من الزمن التى شهدت قدرًا كبيرًا من سوء الفهم الناتج عن فصل الكنيسة عن الدولة أدت إلى مثل هذا الانشقاق بينهما حتى أنه أصبح أمرًا متخلفًا أو محرجًا أن يقوم المرء بممارسة التراث الدينى غير العصرى أو دراسته. وبينما لا تشكل هذه الأمية الدينية أى تهديد لمن لا يمارسون الشعائر الدينية تصبح تلك الأمية خطرًا كبيرًا على من يأخذون دينهم مأخذ الجدّ: فهم لا يعلمون أنهم لا يعلمون ـ وتلك فئة من المؤمنين نصحنا معلمونا أن نهرب منهم[1]. ! وعندما يصبح هؤلاء هم من يعلمنا الدين، فلم العجب فى أن نرى ضرورة تأليف كتاب هام تحت عنوان «متى يصبح الدين شرًا؟[2]».

واليوم، لم يعد هناك إلا اليسير من الشك فى أن الأصولية الدينية تمثل رد الفعل الدينى ضد تيارات الحداثة العلمانية المعادية للدين، والتى بلغت ذروتها فى منتصف القرن العشرين.

أنا مسلم ومواطن أمريكى على حد سواء، أفخر بالمبادئ الجوهرية والأساسية التى تنافح عنها أمريكا مثلما أفخر بالمبادئ الجوهرية والهامة التى ينافح عنها الإسلام. فقد ترعرعت فى كنف العالم الإسلامى وأمريكا على حد سواء، غير أننى أشعر بالألم لما فعل كلٌّ منهما بالآخر.

فالحادى عشر من سبتمبر ـ ذلك اليوم الذى سيظل موصومًا فى الذاكرة بالخزى والعار، حيث قاد الولايات المتحدة للدخول فى حرب ـ أربك الكثيرين من الأمريكيين غير المسلمين من الإسلام وأرعبهم منه. فالقول بأن الإسلام دين السلام لن يتفق مع صوره المتحدثين المسلمين وهم يدينون أمريكا بعبارات مقذعة، أو يجاهرون بالهجوم على اليهود والنصارى، أو مع المشاهد التلفزيونية التى تصور الإيرانيين وهم يصرخون «الموت لأمريكا»؛ لم تعد التقارير الإخبارية تغطى تنفيذ تفجيرات انتحارية ضد أهداف عسكرية على بعد آلاف الأميال، فالهجوم فى ذلك اليوم كان فى عقر الدار، ولم يعد فى مقدور الأمريكيين التسامح.

إن الهجوم على مركز التجارة العالمى غير المعادلة بطريقة حاسمة: فالعنوان الرئيسى القائل «أمريكا فى حالة الحرب» الذى بثته شبكة «سى إن إن» أصبح شيئًا مثبتًا فى مكان ما فى البيت الأمريكى، ولأول مرة منذ حرب ١٨١٢م يتم مهاجمة الولايات المتحدة داخل الولايات الثمانى والأربعين المتجاورة. ويتعرض المدنيون الأمريكيون لخطر هجوم خارجى من عدو مجهول يرتبط وبشكل مباشر بدينى ـ الإسلام؛ ولتأكيد الخطر وتعظيم أمره يستهدف الهجوم أهم رموز القوة الأمريكية:

* مركز التجارة العالمى: رمز وول ستريت والقوة الاقتصادية الأمريكية.

* البنتاجون: مقر المجمع العسكرى الأمريكى، أقوى الأجهزة العسكرية فى العالم، والتى تساوى ميزانيتها السنوية الميزانية العسكرية للدول العشرين التالية لها فى الترتيب مجتمعة.

* مبنى الكابيتول الأمريكى : رمز ديمقراطيتنا .

لقد كان الأمر أكثر مما يحتمل ، ولا يمكن أن تتعرض أية دولة لمثل هذا الهجوم دون أن ترد بأقسى طريقة ممكنة .

ومنذ ذلك الوقت لم تتوقف الأنباء عن التفجيرات الانتحارية فى إسرائيل وفى بعض بلدان العالم الإسلامى مثل پاكستان وإندونيسيا والعراق وأخيراً فى السعودية والمغرب عن ترسيخ الصورة الأمريكية المقولبة عن المسلمين والمخاوف منهم .

وقد ولد هذا الخوف عدة أشياء : كراهية أى شىء ذى صلة بـ «العدو» ـ من المظهر العرقى إلى اللباس إلى الدين ـ وظهور العقلية دائمة التربص بالآخر . وانحرف اتجاه البلد بأسره إلى اليمين متجهًا بين عشية وضحاها من أمة ترى أن حرق الأعلام ـ على ما فيه من إهانة ـ حق يكفله الدستور إلى أمة ترى أن المرء يخطئ سياسيّا إن لم يتشح بعلمها بتباه . هل كان صمويل هنتنجتون على صواب؟ هل كنا نشهد «صراعًا للحضارات» بين الغرب وما سواه ـ فى هذه الحالة بين الحضارة الغربية والإسلام ـ فى حالتنا تلك؟ يبدو الأمر شديد البساطة : كيف لأمريكا أن تكره من خمسة إلى سبعة ملايين نسمة من أبنائها؟

لقد غيرنى الهجوم على مركز التجارة العالمى والپنتاجون أنا شخصيّا . فقد كنت قبل الحادى عشر من سپتمبر معلمًا للمعارف الإسلامية أسَخِّر جل جهدى للجانب العقائدى والروحى والفقهى من دينى ، وكنت ناشطًا فى مجال التعاون بين الأديان فى مدينة نيويورك سيتى . وخرجت من رفضى الانجرار إلى السياسة ؛ لأننى لم أكن أرى فيها أى مغنم لأجد نفسى مجبراً على شرح ما لدىّ والدفاع عن عقيدتى . لقد أجبرتنى أحداث هذا اليوم من أيام عام ٢٠٠١م على الخروج من دفء محرابى المصنوع من خشب الماهوجنى فى مسجدى الذى يبعد اثنتى عشرة بناية عن موقع الانفجار فى مدينة نيويورك ؛ وفى غمرة المطالبة بـ «شرح وجهة النظر الإسلامية» وجدتنى أهرع مسرعًا من مقابلة مع محطة تلفزيونية أو إذاعية إلى أخرى محاولاً أن أشرح فى عدد ضئيل من وحدات البايت الصوتية أغوار القضايا .

ودفعنى التزامى بتحسين العلاقات بين الطوائف الدينية وبتخفيف الآلام التى نتعرض لها ـ نحن بنى البشر ـ فى حياتنا إلى الانخراط فى جولة من الحوار فى معابد اليهود والكنائس والحلقات الدراسية ومجموعات العمل فيما بين الأديان ساعيًا وراء السبل التى تساعد الآخرين على فهم الأرضية الأوسع التى توحد بين موروثاتنا العقائدية والاعتراف بها.

وجاء هذا الكتاب تكريسًا وتتويجًا لهذا الجهد. وسنقوم بين طياته بتحليل الشقاق بين العالم الإسلامى والولايات المتحدة، وبتحديد مواطن الثراء فى تراث كلٍّ منهما. كما سنناقش عددًا من القضايا الساخنة التى أثيرت منذ الحادى عشر من سبتمبر حول موضوعات علوم الدين والسياسة والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس. ومن خلال فهمنا المتزايد للسبب فى أن العلاقة بين العالم الإسلامى والغرب سارت فى الطريق الخطأ، ويمكننا البدء فى اكتشاف سبل إعادة بنائها.

الإمام فيصل عبد الرءوف ـ نيويورك ٢٠٠٤م